تشخيص ظاهرة الإرهاب روائيًا

إعداد

د. محمد أحمد أبو عدل (سوري الجنسية)

أستاذ مساعد في قسم الإنسانيات – جامعة اليمامة – الرياض

m_aboadel@yu.edu.sa

00966583365362

التلخيص

لعل هذا البحث يدَّعي الفرادة في أنه يشخِّص ظاهرة الإرهاب روائيًا، إذ يستفيد من خصوصيتها الفنية؛ ليختلف عن الأبحاث الأكاديمية التي تتناولها بطريقة مباشرة، فيقدمها هو بطريقة تصويرية ضمن مشاهد حقيقية تنبض بالحياة والحركة، وتكون أقدر على التأثير في القارئ وإقناعه أكثر مما يستطيعه كتاب كامل، فهذا البحث لا يأبه بإخبار القارئ أو بتزويده معلومات صارت مستهلكة، بل يُعنى بأن يريه ويشعره بما تثيره من خياله في إدراك أب

عاد الظاهرة حياتيًا لا نظريًا فحسب، من خلال تتبعها تحولات شخصية حكائية من لحم ودم، انتقلت إلى التطرف وممارسة العنف نتيجة ظروف قاسية عاشتها، وأسهمت في تحولاتها غير السوية، ومن ثم استفاقت فجأة من خدر ذلك التتبع الأعمى للجماعات المتطرفة.

وقع الاختيار على هذه الرواية بموضوعها الحساس، نتيجة المتغيرات الأخيرة التي عانتها البلدان العربية وما زالت تقاسيها، وعودة الإرهاب بصورة أقسى وأبشع مما كنا نسمع عنه سابقًا، سواءً إرهاب دول أم إرهاب جماعات، فكانت الغاية تتبع شخصية الإرهابي قبل مرحلة التحول، من خلال العودة إلى بداياته الأولى عندما كان طفلًا يعيش على البراءة والفطرة السليمة، ومن ثم رصد مراحل نموه جسديًّا وفكريًّا ونفسيًّا، لتلمس الأسباب الخفية وراء اعتناقه مثل تلك الأفكار المتطرفة، فكانت البيئة المدرسية الابتدائية حيث تعلم لغة العنف والإرغام لا الحوار

والإقناع، ثم البيئة الأسرية الطاردة وغير القادرة على فهم التغيرات الفيزيولوجية والنفسية لهذا الطفل الذي دخل حديثًا مرحلة المراهقة، بالمقابل وجد ضالته من الترحيب والتشجيع الذي لقيه من قبل تلك الجماعات المتطرفة التي عملت بشكل منظم على استدراج الفتية في مثل عمره والإيقاع بهم؛ لدمجهم في تنظيماتهم المتشددة.

ثم تتبع البحث آليات التعبئة والتجنيد لفئة الشاب تحديدًا؛ مستغلين في هذه المرحلة سهولة انسياقهم واستجابتهم وجدانيًّا؛ نظرًا لقلة خبرتهم في الحياة، ليكونوا قبضتهم التي يبطشون بها، ويحققون من خلالهم أهدافهم سواءً دينية أم سياسية... بعد ذلك توجه البحث نحو رصد مظاهر الإرهاب، التي كان أبرزها التكفير والقتل لكل من لا يعتنق أفكارهم أو يجاري أهواءهم، وإضمار العداء له سواءً على مستوى الأفراد أم الحكومات.

Summarization:

this paper has a singular in that it characterizes the terrorism phenomenon of narration, as it uses its literary exclusiveness to Separate from the academic paper way that it deals with the same phenomenon directly. It presents it in a realistic way, in real scenes of life and movement, and is more capable of influencing the reader and persuading him than a complete book. The paper does not care to tell the reader or to provide him with information that has become consumed, but rather to show him and feel his imagination in realizing the dimensions of the phenomenon in life, not only theoretically, through personal transformations of flesh and blood, It contributed to the transformations of abnormal, and then suddenly woke up from numb of blind trace of extremist groups.

This novel has been chosen because of its sensitive object; as a result of the recent changes experienced by the Arab countries, and the return of terrorism in an uglier way than we have previously heard, both of national terrorism or individual terrorism. The aim was to follow the personality of the terrorist prior to the transition stage, by returning to his early beginnings as a child living on the patent and common sense, and then monitor the stages of growth physically, intellectually and psychologically, to touch the reasons behind the hidden embrace such extremist ideas, to discover that the reason was the primary school environment where the language of violence and coercion, not logical dialogue and persuasion, then the Non-friendly family environment which is not able to understand the physiological and psychological changes of this newly-entered child in Adolescence. On the other hand, he found his misfortune to be welcomed and encouraged by those extremist groups that worked systematically to entice young boys and to integrate them into their hard-line organizations.

And then the paper followed mechanisms of mobilization and recruitment of the young people specifically; taking advantage of at this stage easy to drift and respond to the emotional; because of lack of their experience in life, to be their grip, and they achieve their goals, whether religious or political ... Then the paper directed to follow the manifestations of terrorism, The most prominent of which is the atonement and murder of those who do not espouse their ideas or contradict their passions, and the harboring animosity of the governments and the individuals.

لعل ما تود رواية "الإرهابي ٢٠"* قولَه أن الإرهابي في البدء كان إنسانًا سويًّا يعيش على الفطرة السليمة التي خلق الله – سبحانه وتعالى – عليها جميع البشر، مكتنزًا بالعواطف والمشاعر السوية، إلا أن الظروف التي عايشها، والمعاملة التي تعرض لها، والأفكار التي تشرَّبها ممن حوله، والسلوكات التي رآها ممن يظنهم قدوة، كل ذلك جعله يتحول في فكره ليغدو مخدرًا بأفكاره المتطرفة يترجمها أفعالًا عدوانيةً طمعًا في الوصول السريع للفردوس والتنعم بالحور العين.

قد يتساءل أحدهم: ما الهدف من هذا البحث، وفي هذا الوقت تحديدًا؟ فأقول: منذ قرابة ثماني سنوات مضت، فرح كثير من الناس وصفقوا وهللوا لولادة مصطلح جديد يسمى "الربيع العربي"، إذ رأوا فيه مخلصَهم من العذابات التي عانوها لعصور، وتفاءلوا بعهد جديد ينعمون فيه بوافرٍ من الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، **لكنهم استفاقوا من أحلامهم تلك على كابوس من الخيبات والويلات والقتل والتدمير والخراب والتهجير، ازدادت على إثره التدخلات الأجنبية، فعانينا إرهابًا دوليًّا من جهة، وإرهابًا دينيًّا من جهة أخرى، والضحية في المحصلة الإنسان العربي. ففي الوقت الذي تخوض فيه دول العالم سباقًا مع الزمن، وتتنافس في سبيل التطور والتقدم، تقهقرت دول الربيع العربي عشرات السنين نحو المؤخرة، وصارت مرتعًا خصبًا لتيارت دينية متشددة.**

فهذه المتغيرات الأخيرة التي عايناها، وما زلنا نعانيها، دعت إلى كتابة هذا البحث، إذ أراه لزامًا على كل من تهمه القضايا المصيرية لهذه الأمة، أن يسهم بشكل أو بآخر في مواجهة كل ما من شأنه الإضرار بها وإضعافها، وبناء عليه فقد جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على زوايا ما تزال معتمة وغير مكتشَفة في هذه الظاهرة، جرى تناولها سابقًا، نعم؛ ولكن في غير مجالي الأدب والنقد، أي على نحو أكاديمي نظري يتصف بالمباشرة والتقرير، من هنا تأتي فرادة هذا البحث الذي يدَّعي القدرة على التأثير والتغيير بطريقة مختلفة ومن خلال الأدب الذي

"يملك القدرة على استدرار عطفك على من يصورهم من الأشخاص، وإثارة إعجابك بهم..."١ إذ يحدث نوعٌ من التماهي بين القارئ وبطل الرواية، فيعاين كلاهما الأحداث عن قرب، ويستشعر المتلقي الظروفَ والأسباب التي دعت إلى هذه الظاهرة، وبالتالي يمتلك القدرة على التمييز بين من ينتهج المغالاة والتطرف، ومن ينتمي إلى منهج الوسطية والاعتدال.

ولكن، جدير بالذكر والتنبيه أنه في عالم الإبداع الروائي مهما اقتربت الأحداث من الواقع الموضوعي، فإنه من غير الجائز المطابقة بينهما وتحميل الروائي مسؤولية أية مبالغة أو تضخيم للأحداث أو حتى تزيُّد فيها؛ لأن هذا إنما يخضع لاعتبارات الفن الروائي ومقتضياته التي تراعي متطلبات الحبكة من تغيير للأحداث وتحوير يخدم القضية التي يداعي فيها الروائي، ويسعى إلى إظهارها للعيان؛ للتنبيه إلى خطرها أو أهميتها، وما قد يرد فيها من إشارات صريحة إلى أماكن معينة أو حقبة زمنية محددة، لا بد من التعامل معه على سبيل الافتراض لا الحقيقة.

ومن ناحية ثانية، فإن جريان أحداث الرواية في بيئة بعينها أو زمن، لا يعني بأي حال من الأحوال أن الظاهرة تقتصر على ذلك، إذ لا يخلو بلد من بلدان العالم على مر التاريخ من أن يكون ابتُلي بجماعات متشددة تنتمي إليه، مارست الإرهاب وأساءت إليه على مستويات ضيقة على الأقل، كما نصادف أنموذجات كثيرة من إرهاب قادات دول نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: هتلر وموسوليني ونيرون وستالين وسواهم ممن فَنِيَ على أيديهم عشرات الملايين من الناس الأبرياء.

أما عن المنهج النقدي المتبع، فقد وقع الاختيار على المنهج التحليلي الذي يعتمد مبدأ الملاحظة واستنباط المعلومات وجمعها وتصنيفها وشرحها وتوضيحها، وهذا تحديدًا ما تم تطبيقه على ظاهرة التطرف الديني في هذه الرواية، فبعد جمع الشواهد المتشابهة، جرى تحليلها انطلاقًا من التجربة الفردية للكاتب، ومن ثم تصنيفها بما ينطبق على التجارب الجماعية في هذا

المجال والتوصل إلى حقائق موضوعية تشخِّص هذه الظـــاهرة، وتكشـــف عنهـــا الحجب.

تمهيد:

إن الإرهاب كمرض خبيث يعمل على برمجة الجهاز المناعي لجسد المجتمع وحصنه المنيع (الشباب)، ليحول آلياته الدفاعية إلى آليات هجومية تدمر ذلك المجتمع، فالشباب طاقة هائلة مستعدة للتضحية والقتال حسبما تتم تهيئتها، فإذا ما أصيبت بلوثة الفكر المتشدِّد، انتفى لديها الشعور بالانتماء الأسري والمجتمعي والإنساني، لتصبح مسيَّرة بفعل أفكارها المتطرفة، كما حدث مع بطل هذه الرواية في مرحلة المراهقة.

عطفًا على ما سبق، فإن هذا البحث يركز على محتوى فكري وثيق الصلة بالواقع، وقد تم اختياره انطلاقًا من الإيمان بأن **"النظرية الأدبية لم تعد بسيطة مثل السابق، تشتغل في حدود الأدب التخييلي فقط، وإنما أصبحت حقلًا لتوليد مقولات تستعين بها السياسات على قضاء حوائجها، وتدعيم مناهجها الملتوية أو المستقيمة، مما جعلها أقرب للعلم الموضوعي، وجَعَلَ الأدب كذلك"**[٢] وبذلك يحاول البحث أن يتمرد على النقد الأدبي التقليدي الذي جعل مدارَ همِّه دراسةَ الجوانب الفنية والشكلية والخيال المحض أو البعيد عن الواقع الموضوعي.

أما هذه الدراسة، فإنها تصدُر من تجربة حية لكاتب الرواية، يعرض سيرته في الانتساب إلى هذه الجماعات بدءًا من طفولته والعوامل المساعدة على ذلك، كاشفًا بشكل فني انسيابي غير مقولب عن آليات ظاهرة الإرهاب، وأشكالها، وأهدافها، بجزئياتها وتفاصيلها، وهذا ما عبر عنه غازي القصيبي في وصفه الرواية بالقول: **"...لا أجد دليلًا يقود إلى أعماق الظاهرة أفضل من الكتاب النادر جدًّا "الإرهابي ٢٠" للإنسان النادر جدًا عبد الله ثابت"**[٣] فالسرد يجعلك تعاين الظاهرة، وتتعرف إليها بدقائقها غير المحكية، التي لا يمكن لدراسة أكاديمية نظرية أن تحيط بها، أو تلتقطها كما فعلت هذه الرواية، بما يساعد على نحو فريد في تشخيص هذه الظاهرة والنظر إليها من الأعماق.

وبناءً عليه فقد جرى تقسيم الدراسة إلى خمسة محاور توزعت على النحو الآتي:

أولًا- حاضنات التطرف الديني:

إنه لأمر بالغ الأهمية أن نحرص في هذا البحث على الكشف عن الأرحام – إن صح التعبير – التي يتخلَّق فيها التطرف الديني، وتتولد فيها المغالاة في تعليم الدين وفهمه والتزمت في تطبيقه؛ لأن مثل هذا التشدد هو النواة المهيِّئة لاحقًا لارتكاب الأفعال العدوانية الخارجة عن الفطرة البشرية السليمة، ولكن لا بد من التأكيد على أن المشكلة لا تنحصر في هذه الأماكن التي تعرضها الرواية بوصفها أنموذجات، كما أن أصابع الاتهام لا تتوجه إلى هذه الأماكن المذكورة، بل إلى بعض الأشخاص الذين يسيؤون إدارتها واستخدامها محاولين دس السمِّ في الدسم، يختاروها نقطة انطلاق لهم؛ لما تتمتع به من صفة القدسية والروحانية لدى عامة الناس، مثل المدارس القرآنية التي يفترض أن تنشئ الأجيال على أخلاقيات القرآن الكريم وتعاليمه الحكيمة والمتسامحة، لكن الحاصل في هذه الرواية أن الطفل يتجرع فيها لغة القسوة والعنف واللارحمة لما يتعرض له من مواقف ظالمة، فيجدر التنبيه إلى أن ما مرَّ به هذا الراوي إنما يعبِّر عن تجربة فردية لا يجوز تعميمها أو إطلاق الحكم على أساسها، ولكن لا بأس من لفت الانتباه إلى مثل هذه الحالات الفردية حتى يتم تلافيها، فلا تكون خطرًا على النشء وعلى المجتمع عمومًا، من ذلك يصف الراوي صدمته الأولى حين كان شاهدًا على حادثة اعتداء على أحد زملائه:

> **"ضربه المدير آنئذ في كل جسده، جلده ببشاعة كان يمسكه من فروة رأسه، ثم يرنحه يمينًا وشمالًا ويقول له ستكون رجلًا رغمًا عنك ... لا تلبس لباس الكافرين هنا" لا أنسى أبدًا بكاء الطفل وهلعه واستنجاده، ولا أنسى أني حين توارى المدير عن أعيننا هربت إلى فصلي**

واختبأت تحت إحدى الطاولات مذعورًا أن يدخل علينا هذا المدير فيفعل بي ما فعله بالطفل. لقد كانت صدمة عنيفة. كانت كل كلمات أخي عن اللعب والمرح وطريق الجنة والسعادة تتحول إلى أشباح مخيفة، لها أنياب حادة تنظر إلي وتقهقه."٤

مثل هذه المعاملة الوحشية التي تصدر ممن يفترض به أن يكون وصيًّا على الدين، تنعكس على شخصية الطفل ونفسيته، وتصبح طبعًا راسخًا في تكوينه اللاحق، يربى عليها، فيظنها لغةً وحيدة للإقناع والتفاهم والتعامل مع الدين والآخرين.

يستخدم المدير في هذه البيئة أسلوب العنف لا اللطف في إكراه الأطفال على الالتزام والانضباط، دون أدنى مراعاة لمشاعرهم أو نفسيتهم، يسرد الراوي موقفًا آخر عن هذه القسوة التي واجهها هو نفسه في طفولته من ذاك المدير بالقول:

"قام آخر الأمر قائلًا: "افتح يديك" وضربني بعصاه تلك على كفي اليمنى، ثم كفي اليسرى على التوالي، وحين انتهى صبري، ولم أعد قادرًا على احتمال أي جلدة، رفضت مد يدي لخيزرانته، فأخذ يضربني على سائر جسدي، ضربني حتى جثوت على الأرض، حتى تمددت عليها، ولولا أن بعض المعلمين في الغرفة تحركت رحمتهم علي فقاموا يمنعونه من مواصلته تعذيبي ما كان ليكف عن تلك البشاعة!

لبست الثياب القصيرة، وهدَّلت الشماغ على صدغي، ولم يكن السواك ليفارق فمي ... أجل كنت أصلي وأقف والسواك في فمي، لكنني لم أكن على وضوء،

وكنت أصلي وأجلس في المسجد، لكني كنت أكرههم!"٥

مثل هذا الأسلوب العنيف في التأديب للأطفال، يرسَخَ في ذاكرتهم، ويصاحبهم حتى يكبروا، وينجم عنه التزام بالتعاليم. ولكن عن خوف ورعب، لا عن اقتناع وإدراك، ويتشكل لديهم نوع من النفور والإعراض الضمني عن هذا الدين الذي يُفرض عليهم بالقسوة والجفوة، فلا يكون التزامهم إلا شكليًّا تجنبًا للعقاب فقط.

إن ما يعايشه الطفل ويشعره ويمر به في سنواته الأولى لا يغادره عند الانتقال إلى المراحل الأخرى، بل يدخل في تكوينه الفكري والنفسي والسلوكي، وما عاناه هذا الطفل في هذه المدرسة سينعكس سلوكًا تمرديًّا عدوانيًّا على أهله ومجتمعه المحيط؛ لأن قلبه طفح بالحقد والكراهية على المدرسة والمعلمين فيها، لما ذاقه فيها من شتى صنوف التعذيب والترهيب والتعنيف، فلا نعجب إن وصف الراوي مشاعره السوداوية بعد مغادرته هذه المرحلة بالقول:

"أنا الطفل الذي ألمت به حالات الرعب حيال المدرسة القرآنية ومن فيها، تلك المدرسة التي مثلت خيبة الأمل الأولى، وفقدان الثقة بأية وعود من سماءٍ أو أرض!
علي أن أقول إن أشياء كثيرة شكلتني في هذا البدء، وأشياء كثيرة تشكلت بداخلي، فالله لم يكن في تصوري الطفولي حينئذٍ يخذل الأطفال، ... القمعية العنيفة التي واجهتها نفسيًّا وجسديًّا جعلتني أكره كل ما يتصل بالسماء"٦

فالنتيجة الطبيعية لمثل هذه المعاملة اللاإنسانية تجاه الأطفال، أن تتشكل في أذهانهم صورة مشوَّهة وغير معبِّرة عن حقيقة الدين الإسلامي وعن الله سبحانه وتعالى، لكنه انطباع استوحاه الطفل من المعاملة السيئة التي تلقاها ممن يفترض بهم

أن يكونوا أوصياء على الدين وممثلين له، ذلك أن الولد في هذه المرحلة العمرية تسيِّره الفطرة، ويحكم على من حوله بناء على سلوكاتهم المباشرة تجاهه، دون أن يرهق عقله الصغير بمجرد التفكير باحتمالية وجود اعتبارات أخرى.

بعد أن غادر (الجبالي) المرحلة الأولى شعر بما يشبه الانعتاق من سجن عانى فيه لسنوات أشد أنواع القسوة والخوف، ليجد نفسه في المرحلة الثانية (الإعدادية)، حيث عالمه الحالم وما يحقق له وجوده بوصفه طفلًا يحتاج مساحة كافية من حرية اللعب دون ترهيب أو تخويف أو رعب، فكانت فترة استقرار واستعادة للتوازن النفسي، تفوق فيها دراسيًّا وغدا الأميز بين زملائه، لكن وتيرة الأحداث تبدأ بالتسارع وصولًا إلى حبكتها عندما انتقل إلى المرحلة الثانوية، التي يصف فيها الراوي شعوره الغامر بالقول:

> **"فرحتي بالمدرسة، هذا العالم الجديد الأكبر حينها بالنسبة إلي، أنستني الكثير مما أعانيه، ولم أكن أعلم أن ولوجي بناية تلك المدرسة إيذان باقتراب ميلاد حكاية ضخمة جدًّا في حياتي، أسهمت أشياء عديدة بتعجيل موعدها، فما كانت سوى بضعة أسابيع حتى كنت محط أنظار جماعة أنشطة دينية بالمدرسة، كان يطلق عليها جماعة التوعية، وكان معظم المتفوقين من الطلاب والمؤثرين وذوي الطاقات الفذة في إطارها، ويشرف عليها معلمون متدينون، تبدو عليهم سمات الزهد وتعلو الهيبة ملامحهم.."٧**

إذن، تمثل المدرسة الثانوية البيئة المثلى لبث الأفكار المتطرفة؛ لأن الفئة العمرية التي تركز عليها أكثر انسياقًا لمشاعرها، وأكثر اندفاعًا لحماسها العاطفي، وأكثر قابلية للاستجابة والتوجيه، ولا سيما عندما تعمل هذه الجماعات على إغراء الفتية بدعمين مادي ونفسي يفتقدونهما في أسرهم.

بعد تهيئة المراهقين نفسيًّا، وضمان انقيادهم فكريًّا وعاطفيًّا لهذه الجماعات، تأتي مرحلة العمل على التهيئة الجسدية والتدريبات العسكرية، ولكن من أين لهم بمكان يخفي عن الأعين مثل هذه الأفعال الإجرامية، فيقررون التخييم في مكانٍ ناءٍ؛ ليكون هذه المخيم النقلة النوعية في خطتهم والتحول الفعلي إلى حيز التنفيذ، يكشف الراوي جانبًا من هذا التنظيم الجديد بالقول:

"...ينادي قائد المخيم، الذي يسمى "الأمير"، من المعلمين بالجمع صارخًا على الطريقة العسكرية: "مخيَّم اجمع .. مخيّاااام اجمع، مخيَّم اجمع ..". **فيصطف التلاميذ والمعلمون وطلاب الجامعة بين يديه في الساحة الوسطى، كأنما يعطونه البيعة، ثم يقسم التلاميذ على أربع أسر ... ثم يعين لكل أسرة قائدًا من طلاب الثالث الثانوي وواحدًا من المشرفين من طلاب الجامعة، ويعين أحدهم مسؤولًا عن النشاط الثقافي، وآخر عن الرياضي، وآخر عن الحراسة الليلية، وهكذا توزع مهمات المخيم، كنا نعيش نشوة إقامة دولة، يُوزع مهماتها والمسؤولون عن قطاعاتها!"**[٨]

بعيدًا عن أعين رجال الأمن يعسكرون تحت مسمى مخيم، يتبعون نظامًا صارمًا، ويطبقون آليات إعداد قوة مدربة ومهيئة للقيام بالمهام الجهادية على حد تعبيرهم، فتجدهم يخططون لشن هجمة افتراضية على المخيم نفسه لأخذ غنائم وأسرى ... كما يمارسون التمارين القاسية بقصد الإعداد الجسدي مرتدين الزي الأفغاني الجهادي لمنتصف الساق، ويأخذون دروسًا في الترغيب والترهيب والجهاد، معرِّضين بالمجتمعات والحكومات.

تجدر الإشارة إلى أن مجرد ذكر بعض الأماكن، مثل: المدارس القرآنية أو الثانوية والمخيمات والمراكز الثقافية ... أو غيرها، لا يعني إنكار دورها الكبير في

تنشئة الأجيال على ثقافة الإسلام والقرآن الكريم، كما لا نتعمد التعرض للرموز الدينية فيها، بل هو تنبيه إلى بعض المغالين في تلك الأماكن ممن يتبعون سلوكًا تربويًّا خاطئًا في التعامل مع الطلاب، مما يكون له تبعاته السلبية على سلوكاتهم وطريقة تفكيرهم وسلامتهم النفسية لاحقًا.

ثانيًا- آليات التجنيد والتعبئة والعوامل المساعدة:

تعرض الرواية مجموعة من الآليات المدروسة والمنظمة التي تنتهجها الجماعات المتشددة للإيقاع بالشباب ودمجهم؛ يتم هذا على مراحل قد تمتد على سنوات، يحرصون في أثنائها على غسل دماغه وبرمجته حتى يصبح أداة طيِّعة في أيديهم، قابلة للتشكل كالعجينة كيفما شاؤوا، ومن ثم النضج على نار أفكارهم ومعتقداتهم وسلوكاتهم بعد أن يسعَدَ بدايةً بما يحيطونه به من الحفاوة والترحيب.

أما عن العوامل المساعدة على انسياق الشباب إلى مثل هذه التنظيمات المتطرفة والأفكار المنحرفة، فهي كثيرة من أهمها "**الإهمال وسوء المعاملة الأسرية وعدم متابعة الأهل**"[٩] إذ تجدهم يمارسون نوعًا من الرقابة غير الواعية على أبنائهم خوفًا وحرصًا عليهم، دون مراعاةٍ للاحتياجات النفسية والمادية التي تحقق لمثل هذا الفتى المراهق وجوده وإحساسه بذاته؛ لذلك تغدو الأسرة بيئة طاردة منفِّرة لا تلبي احتياجاته، ومع إحساس هذا المراهق بالتوجس من مغبَّة الانضمام إلى هذه الجماعات إلا أنه فضل ذلك بقوله:

> **"فرحت بهذا كثيرًا، وخفت منه كثيرًا، لكن كل شيء كان يدفعني لأقول له إني سأكون معكم بكل فرح، كان هروبي من جحيم أهلي يجعلني مستعدًا لأكون في أي مكان إلا أن أكون بداخل البيت الذي يعاملني كمراهق يجب أن تحاصر كل أفعاله، أو كفتى وسيم يجب أن يراقب حتى لا ينتهك أحد جسده، وفي الحالتين كنت أهيئ نفسي للشتائم والصراخ وربما الضرب أحيانًا ..**

إذن وافقت وسأتمرد على أهلي لأكون مع تلك الجماعة شاؤوا أم أبوا!"١٠

فهذا الفتى وجد نفسه مرهونًا بأحد أمرين أحلاهما مرٌّ، أن يختار ملازمة البيت وأهله، ويتحمل ضغوط الرقابة والمتابعة التي تمارس عليه وتقيده وتحجِّمه، وتعامله على أنه ما يزال طفلًا، ولا تتردد في شتمه أو حتى ضربه وإهانته، أو أن يختار الانضمام إلى هذه الجماعة المتشددة والتي تمثل السلطة والصلاحيات في المدرسة الثانوية، وتقدم له ما تهوى نفسه من تسهيلات قد نراها صبيانية ولا أهمية لها، لكنها بالنسبة إلى هذا الشاب المراهق تعني كل شيء، ويحقق من خلالها ذاته ووجوده، من مثل ممارسة رياضة كرة القدم واصطحابه في السيارة مع أحد أفراد الجماعة بصفته صديقًا يلهو معه، ويسهر ويقضي أوقاتًا سعيدة، ويتعامل معه على أنه رجل قادر على تحمل المسؤولية والقيام بالمهام التي تُوكل إليه.

فعملية الدمج لا تتم بين ليلة وضحاها، أو دفعة واحدة، كما أن الأساليب التي يتبعونها مختلفة ومتنوعة ومتدرجة حسب المرحلة التي وصل إليها الشاب معهم، ففي البدايات يتبعون معه أسلوب العناية والاهتمام والترغيب حتى يجذبوه إلى عالمهم، ويحببوه بالجلسة والاجتماع معهم، يرسلون إليه طُعمًا يصطاده، ويأتي به إليهم، فالراوي (زاهي الجبالي) يصف البداية بالقول:

"... وفي طريق العودة متجهين نحو بيتي أخذ يحدثني سعيد عن الأمر الذي يريدني بصدده، فذكر أن رمضان اقترب وأنه لم يبق سوى بضعة أيام على حلوله، وأن جماعة التوعية تنظم دورة في كرة القدم وأنه يحب أن أشارك في هذه الدورة الرياضية، فأنا بحسب تعبيره ليلتئذ أفضل الطلاب الجدد موهبةً وتميزًا في لعب كرة القدم، وذكر لي أن هذه ليست رغبته فقط، بل إنه ينقل تحيات المعلم المهيب الشيخ عبد الحميد ودعوته إياي للمشاركة

في الدورة الرياضية، التي تنظمها الجماعة في ليالي رمضان بالمدرسة!"١١

هكذا يُظهرون عالمهم لهذا الفتى المراهق في البدايات، عالم حالم فيه الصحبة الطيبة التي تشعره بوجوده وأهميته في هذه المرحلة، تثني عليه وترى فيه ما يميزه من سواه، وتوفر له بعض أسباب السعادة.

يركز أفراد هذه الجماعات على الجانب العاطفي في إقناع المراهقين، ويعدونه الورقةَ الرابحة والناجعة في أيديهم؛ لأنه الطريقة الأسهل لكسب تأييدهم ودمجهم، يتم هذا – كما سلف – باتباع آلية الترغيب، وبالمقابل يعمدون إلى استخدام آلية أخرى هي الترهيب، فهذه الفئة العمرية سريعة التأثر والاقتناع بعاطفتها أكثر من عقلها، ويصبح الفتى مستعدًا للإقدام على إنجاز أية مهمة للتخلص من عذابه النفسي، ففي رحلة المخيم يعرض الراوي أحد الأساليب التي ركزت على هذا الجانب بالقول:

"...والمشهد الأخير مشهد النحيب والنواح فيفتح الستار على شاب أعرض عن صحبة جماعة التوعية، واصطحب غيرهم، ثم يقفل الستار على صوت حادث سيارة عنيف (باستخدام المسجل) ويفتح الستار من جديد، لكن هذه المرة على مشهد الجنازة، المسجاة أمام الجميع، ممثلين نهاية الواقفين بطريقهم، ويعلو صوت المسجل بسورة "قاف"، ثم يعقب ذلك نشيد روحاني مؤثر! لحظتئذ يضج المخيم بالصراخ والبكاء، ويقف أمير الرحلة بعد المشهد، متحدثًا عن الحيات، والعقارب، والنار، وسوء الخاتمة!

ترى ما الذي يملكه مراهقٌ في السادسة عشرة من عمره، يرى مشهد السكرات والموت، تختلط مع عنف المشهد

وإرهابه الآيات والنحيب .. يالله، كم بكيت تلك الليلة التي أذكر أنني وقتئذ ارتميت لائذًا بيحيى مرتعبًا هلعًا!"١٢

لكي يخلِّفوا في نفوس هؤلاء الفتية أثرًا نفسيًّا عميقًا، يلجؤون إلى الاستعانة بمؤثرات بصرية متمثلة بالمسرح ومشاهده الحزينة، ومؤثرات سمعية متمثلة بالأناشيد الروحانية وتلاوة القرآن الكريم، ترسِّخ في عقلية هؤلاء الشباب ضرورة ملازمة هذه الجماعة؛ لأن في صحبتها الهداية والنجاة، وفي مفارقتها الضلالة والهلاك.

أفكار خبيثة غريبة عن طباع الإسلام المتسامح مع جميع الأديان والاعتقادات، يسمِّمون بها عقول هؤلاء الصبية الصغار، فيسيرون خلفهم كالمخدَّرين، معتقدين أنهم وحدهم على صواب، وأن ما عداهم ممن خلق الله من مليارات البشر على خطأ، وبالتالي فإنهم يعدُّون معاداة الآخرين وكرههم واجبًا شرعيًّا، في حين أن الدين براءٌ مما يدعون إليه. إن إحدى أخطر هذه الأفكار إساءة فهم المبدأ الإسلامي "الولاء والبراء" والتشدد والمغالاة في استخدامه، فهو يدل في أصله على أقصى أنواع الانقياد للدين الإسلامي وممثليه، والتنكر وعدم الافتتان بمن يخالف هذا المعتقد، لكنه في استخدامهم ومفهومهم هم يضمرُ الانسياق الأعمى والطاعة اللامتناهية وبعقول مغيَّبة لتوجيهات أئمتهم المتطرفين، والعداء لجميع من لا يعتنق أفكارهم والسعي للقضاء عليهم ومسحهم من الوجود؛ لأنهم –من وجهة نظرهم المتطرفة – سبب في فساد البشرية، يصف بطل الرواية هذا المفهوم بالقول:

"في مراكز كهذه كنا نتعلم أن كل العالم كافرٌ، وأن الإسلام الحقيقي قائم على مفهوم الولاء والبراء، الذي يعني موالاة المسلمين، والبراءة من الكافرين، بل موالاة من هو على عقيدتنا ورأينا من مذهبنا في الإسلام والبراءة ممن هم على غيره!

كانوا يدخلون إلى ضمائرنا عبر طريقين، أحدهما استغلال الجانب الوجداني، عبر الترهيب والترغيب، والطريقة الأخرى هي ما يكلفوننا إياه داخل المركز وخارجه من البحوث والدروس والمشاركات، وما يلقى علينا من المحاضرات والكلمات، وغير ذلك! وينتهي المركز، وقد خرج المشرفون الحركيون عليه بمجموعة كبيرة من الطلاب المنتمين إلى اللقاءات الأسبوعية الحركية، وأصبحوا مهيئين مجندين لتنفيذ توجه هذه الجماعة، وبدرجة عالية جدًا من الولاء، والاعتقاد حيالها بفكرة الطائفة المنصورة والفرقة الناجية، وغير ذلك أيضًا"١٣

مثل هذه الجماعات تنصب نفسها راعيًا ووصيًّا شرعيًّا على البشرية جمعاء، معتمدة التشدد في تطبيق مفهوم "الولاء والبراء"، فإما الانقياد والانسياق لهم ولمعتقداتهم وأفكارهم، أو السعي إلى القضاء على كل من يتمرد ولا يقبل بشريعتهم، مما يعني أنهم سيسعدوا بفناء البشرية عن بكرة أبيها إن لم تعتقد بمعتقدهم؛ لأن بقاءها يعني استمرار الفساد في الأرض، ولا يكتفون بتكفير الناس من الأديان الأخرى فحسب، بل وصل بهم التطرف والتعصب الديني إلى درجة تكفير الطوائف الأخرى التي تنتمي إلى الإسلام نفسه.

أما إن سولت لأحدهم نفسه التمرد على التنظيم ورفض تجاوزاته، فإن هجرانهم له وإعراضهم عنه والتبرؤ منه وسيلتُهم لمحاولة رده عن قراره، فليس بالعدد القليل أولئك الذين يكتشفون مبالغات هذه الجماعات، ويضيق بهم الحال من تشددهم، وغلوهم في معاداة البشرية جمعاء، فيقررون تصحيح مسارهم كما حدث مع (زاهي الجبالي) بطل الرواية، الذي يصف ردة فعل شيخ الجماعة التي كان ينتمي إليها:

"كل هذه التهم دفعت بالشيخ ع.م لأن يتخذ في حقي قرارين، أولهما استبعادي من جميع أنواع الأنشطة في المدرسة، وثانيهما هجراني من قبل الجميع، فكل من يتحدث إلي أو يصطحبني أو يتلطف لي يكون قد عصى أمر الشيوخ جميعًا، وامتثلوا على بكرة أبيهم، وصرت خارج الأنشطة تمامًا وخارج قلوبهم بفعل هذا الهجران القاسي! ... كان لهذا الاستبعاد والهجران فائدته، حيث استمر ذلك الهجران طوال الفصل الدراسي الأول. هذا يعني أني كنت وحيدًا، وكانت وحدتي تلك محرضًا على الاهتمام بدراستي، وينتهي الفصل الأول، وأنا من المتفوقين على مستوى المدرسة، حاملًا تقدير الامتياز، وضمنت تجاوز السنة كلها والخروج من هذه المدرسة، التي تحولت إلى جحيم وقهر وإلم وظلم!"١٤

يحاولون ترويضه وتأديبه مرة أخرى من خلال تجريده من جميع الصلاحيات التي كان يتمتع بها ويحقق بها ذاته، ومن ثم زجِّه في العزلة التي كان يعانيها قبل انخراطه معهم، آملين أن يعيده إحساسه بالاغتراب الاجتماعي إلى أحضانهم أكثر طاعة واستجابة لأوامرهم، لكن الشاب كان واعيًا هذه المرة وقادرًا على أن يتكيف مع معاناته، بل وأن يستثمرها لتكون سببًا في تفوقه دراسيًّا.

كان هذا الإحجام والإعراض الذي لقيه من الجماعة فرصة لدى الفتى لإعادة التفكير في الطريق التي سلكها معهم، وبداية استفاقة من خدر الاتباع الأعمى لأفكارهم وأفعالهم، وإن كانوا قد عادوا يستدرجونه مرة أخرى ظنًّا منهم أنه قد ارعوى وتاب عن تمرده عليهم وندم عليه، بيد أنه لم يحسم أمره بعد، وإن كانت عواطفه تملي عليه البقاء على موقفه الرافض لهم، إذ يقول:

"بعد شهرين قرر الشيخ ع. م أن يسمح لي بالمشاركة في المركز، وأن ينتهي هجراني خوفًا عليَّ بأن أضل وأتركهم تمامًا، وهكذا أعادوني إلى الأنشطة، وبقي الشيخ علي على موقفه من استبعادي من العمل التنظيمي، فعدت إلى الأنشطة لكن بقلب جريح وكبرياء مكسورة!

لم يعد لهذا المكان في نفسي فتونه السابق، بل إني اعتدت الوحدة والبقاء مع كتبي وأطفال إخواني، والجلوس مع أهلي الذين تراجعت عن الاصطدام بهم وتركت تكفيرهم وشتمهم .. كنت أحتاج إليهم، ولأنهم أهلي فقد غفروا لي كل ما فعلته، واحتفلوا بتميزي الدراسي كثيرًا، وباقترابي منهم من جديد أكثر!"١٥

فأسلوبهم يسعى إلى إخضاع هؤلاء الفتية من خلال التلاعب بمشاعرهم إقبالًا وإحجامًا بالقطيعة والوصل، لكن هذا الأسلوب لم يؤتِ أكله مع هذا الشاب؛ لأنه صار أقرب إلى حياته الطبيعية مع أهله الذين احتضنوه مرة أخرى، وأسهموا في انتشاله من عزلته واغترابه النفسي.

ومع ذلك لم يستسلموا أو يسلِّموا بانشقاقه عنهم ومغادرتهم؛ لذلك غيروا من نهجهم في محاولة التأثير عليه وإرجاعه إلى أحضانهم، بأن يفسدوا علاقته بأسرتِه ملجئِه الذي احتمى به منهم، وتحديدًا والده:

"أولى ردات فعلهم خرجت بأن أرسلوا إلى والدي رسالة، اكتشفتها فيما بعد، قلبت سعادته، باعتدالي وتغير نهجي الحاد ونجاحي في دراستي، إلى شقاء وهلع على ابنه، فقد كتبوا له أني انحرفت بفعل المخدرات، وأني متورط في الشهوات والغرائز، وأن لي علاقات جنسية شاذة. لم يتركوا تهمة، يمكن أن تسقط ابنًا من عين أبيه

إلا كتبوها، وأبي رجل لا يجيد إغلاق أذنيه، فبلغت الأمور عنده أنه صار يعيرني بتغيري ويشتمني، ومرة طردني من البيت..."١٦

إذن، لا تتقبل مثل هذه الجماعات فكرة حرية الرأي، أو أن يتمرد عليهم أحد أفرادهم دون أن يدفع ضريبة باهظة لقاء ذلك؛ لذا فإن عملية الانسحاب من التنظيم ليست بالمسألة السهلة أو الاختيارية، بل تتطلب الكثير من الجرأة والشجاعة لما سيترتب بعدها من سلسلة مضايقات ومواجهات يحاولون بها إعادة دمجه، فقد التجأ الشاب إلى أهله الذين رحبوا بعودته، مما دفع جماعته إلى تشويه صورته مع والده حتى يزرعوا العداوة مع أهله، فلا يجد مناصًا من أن يعود ليرتمي في أحضانهم من جديد.

وبعد أن باءت جميع محاولاتهم بالفشل في جعل هذا الفتى يتراجع عن قرار الانفصال عنهم، عمدوا إلى العنف والقسوة، فهي اللغة التي يجيدونها دون أن يأخذهم أي إحساس بالرفق أو الشفقة، فالراوي (زاهي الجبالي) يصف اعتداءهم عليه بالقول:

" انهالت علي سيول من اللكمات، والرفسات، والصفعات، ومرغوني بالأرض، وكلما ازدادوا عنفًا ازددت صمتًا، وما توقفوا عن شراستهم تلك حتى بدأ الدم يغشاني، ويلون ثوبي الأبيض بحمرته، فكفُّوا وكان آخر ما فعله آخرهم أن ركلني بقدمه في صدري بأعنف ما يطيقه، ثم تركوني ممددًا هناك ومضوا!

قمت بعد اختفائهم وما بجسمي خلية واحدة لا تؤلمني، وبوجهي وسائر جسدي من الكدمات والدماء ما كان يكفي على الأقل للبكاء من القهر والألم!"١٧

لكنه عنف – كما يبدو – ليس بغاية ردِّه هذه المرة عن قراره بمغادرتهم؛ لأنهم فقدوا الأمل في ذلك، بل كان عنفًا بقصد التشفِّي والانتقام، مما يدل على طريقة تفكير غير سوية وسلوك سادي تجاه كل من لا يوافقهم أو يجاريهم في أفكارهم، وبسبب هذا الأسلوب لا يُستبعد وجود عدد لا يستهان به من أفراد الجماعات ينافقون ويستمرون على الولاء ظاهريًّا فقط خوفًا من مغبَّة التصريح بعدم اقتناعهم.

إذن، تنوعت الوسائل والآليات التي اتبعتها التنظيمات المتطرفة للنفاذ إلى عقول الشباب وأعماقهم، فكانوا يركزون على فئة الشباب في مرحلة ما قبل النضج حتى يسهل عليهم تطويعهم والتأثير فيهم وجدانيًّا ترغيبًا وترهيبًا، فيلعبون على وتر احتياجاتهم النفسية والاجتماعية، تمهيدًا لكسب تأييدهم وولائهم، ومن ثم الانطلاق نحو تحقيق أهدافهم.

ثالثًا- أهداف الجماعات المتطرفة:

إن الجماعات المتشددة تسير وفق خطة مدروسة، تعمل على تنفيذها على مراحل وخلال مدة زمنية طويلة، ولها أهداف قريبة تفضي إلى أخرى بعيدة تسعى إلى تحقيقها، وقد تتعدد هذه الأهداف، وقد تختلف باختلاف هذه الجماعات، لكنها بالمحصلة تجتمع لتحقق لهم غايتهم الكبرى.

إذن هي سلسلة من الأهداف يحرصون على تنفيذها، ومن أبرزها تجنيد الشباب؛ لأنهم يشكلون المادة الأولية الخام والأداة الرئيسة الطيعة والسهلة لتنفيذ مخططاتهم، ويكون ذلك التطويع باتباع آلية منظمة ترويها صحفية على لسان شخصية (زاهي الجبالي) الذي كان مشروعًا وأنموذجًا لهذه الفئة العمرية:

> **"في السنة الأولى يعلموننا أن نحب بعضنا بعضًا في نزهات عطلة نهاية الأسبوع والمخيمات الصيفية، حيث يبحثون عن الموهوبين، ويزرعون فيهم رفض عائلاتهم. ثم يعطونهم كتبًا ودروسًا ويبرمجون عقولهم من أجل بناء**

كيان جديد. يعلموننا أننا وحدنا المسلمون .. والآخرون ليسوا كذلك! ... أعطوني كل ما أريد، كتبًا، سفرًا، صلاة، وكل الأشياء التي أفتقدها في عائلتي وجدتها عندهم. أحببتهم. ولذا ائتمنتهم، وآمنت بهم. لقد كنت مستعدًا لفعل أي شيء"١٨

فهم يركزون على هذه الفئة العمرية تحديدًا؛ لأنها الأكثر استجابة عاطفيًا وفكريًا، يحاولون عزل هؤلاء الفتية عن مجتمعهم المحيط بهم ولا سيما أسرهم، حتى يسهل عليهم التأثير فيهم وإقناعهم ودمجهم في مجموعاتهم مستغلين وجود فجوة بينهم وبين أهاليهم في هذه المرحلة العمرية (المراهقة) حيث يتعرض الفتى لمجموعة من التغيرات الفيزيولوجية والنفسية قد لا يحسن الأهالي التعامل معها.

إلا أن الغاية الكبرى التي تتضح في هذه الرواية تتلخص فيما أسرَّه شيخ الجماعة إلى (زاهي الجبالي):

"...وبعد مرور أربعة لقاءات أخبرني أن هذه اللقاءات ليست مجرد حلقات ذكر، بل هي فوق هذا عمل سرِّي منظم على مستوى المناطق كلها، يهدف إلى إقامة كيان جديد، على هذه الأرض، يحكم بشريعة الله وسنة رسوله، وتخطط لهدم دول الكفر والظلم، وتعمل لإعادة المجتمع إلى حياض الدين وإخراجه من جاهليته، ثم حدثني عن سرية هذا التنظيم ومدى خطورة الحديث عنه، أو البوح بأي شيء يخصه!

يا إلهي ... أي مجد هذا الذي أنا فيه، فمن كل حرماني الذي مضى إلى جندي في سبيل الله، يخطط ويعمل ويقدم ويؤخر لإقامة شريعة الله بدولةٍ جديدة .. ها أنا بعد كل هذا من الطائفة المنصورة التي ينصرها الله من

بين كل الطوائف، ومن الفرقة الناجية التي ستذهب كل الفرق عداها إلى النار، وأنا من الذين يجددون للأمة دينها، ويخرجونها من الظلمات إلى النور، ويحيونها بعد موتها!"[١٩]

إنه لهدف جدُّ خطير وكبير، ظاهرُه إقامة دولة إسلامية على طريقتهم، وجوهرُه إعلان العداء على الدولة القائمة؛ لأنهم يرون فيها الفساد حسب تعبيرهم، ومن ثم إجبار المجتمعات المدنية على الانصياع لهم والاستجابة إلى دعوتهم وتعاليمهم، **"كما أن الجماعات الإرهابية تهدف إلى إضعاف الثقة بين الحكومة والشعب، وتشعر الشعب بأن الحكومة عاجزة عن توفير الأمن وملاحقة تلك المنظمات ومواجهتها"**[٢٠]، بل يتجاوزون ذلك في رغبتهم المضمرة في محاربة جميع دول العالم؛ لأنهم يرون فيها كلها الضلالة وضرورة إخضاعها لكلمة الحق التي لا يملكها سواهم! وغير خافٍ ما لمثل هذا الأسلوب من أبعاد وآثار لا إنسانية مدمرة سيدفعها الناس البسطاء والأبرياء، والسبب هو أنهم يريدون أن يسيِّروا العالم حسب معتقداتهم وأهوائهم هم.

بالإضافة إلى ما سبق، فقد تكون الغاية لديهم الحصول على النفوذ والسلطة والمال والشهرة بصرف النظر عن الوسيلة التي تبلِّغهم أهدافهم، التي قد يمتطون الدين ليبلغوها، وقد يمتهنون السياسة جريًا على المبدأ المكيافللي القائم على الوصولية المحضة دون إعطاء أي اعتبار للجوانب الإخلاقية أو الإنسانية:

"فالذين كانوا بالأمس يجمعون عند أقدامهم الآلاف من الجماهير، يتحدثون عن القتل والموت والكراهية ويكفرون العالم من أقصاه إلى أقصاه ويجمعون الملايين الملايين ليُمكِّنوا بها لأنفسهم ولنظرائهم من المتطرفين في بلدان أخرى .. إنهم من كانوا يدبرون في مجالسهم الخاصة الدوائر للوطن والناس، وبعد كل هذا فإنهم رجالات

الإصلاح ووعاظ المواطنة والإخلاص للإنسان والأرض، وهم الذين لم يكلفهم الأمر إلا أن يقولوا على مقاعد الفضائيات، وهم في زينتهم الكاملة، وسلامتهم "إننا أخطأنا" ليتحولوا إلى أبطال، وأموالهم ومناصبهم وقصورهم تضيق بها الأرض..."٢١

تراهم يتلوَّنون بحسب مواقعهم التي يشغلونها، وقد ينقلب أحدهم من النقيض إلى النقيض إن اقتضت مصالحه الشخصية ذلك مخدَّرًا بداء الزعامة والمركزية، خربتْ ... عمرتْ ... آخر همهم، يسيِّرهم مبدأ " أنا وليكن من بعدي الطوفان"، في البدء اعتلوا رؤوس الناس البسطاء المغرر بهم حتى عَلَوا، ثم ركبوا موجة النفاق السياسي.

أيًّا كانت الأهداف التي يسعون إلى تحقيقها، فإن هذا البحث لا يدَّعي أنه حصرها كاملة، لأنه ذكر أهمها مما ورد في الرواية قيد الدراسة، وإن هدفهم في استقطاب أكبر شريحة ممكنة من الشباب لم يكن لهدايتهم على طريقتهم المتشددة، بقدر ما كان وسيلة يحققون من خلالها مآربهم السياسية والدينية الاجتماعية والفكرية، وهذا ما سيغدو أكثر وضوحًا من خلال ذكر أشكال الإرهاب.

رابعًا- مظاهر الإرهاب وأشكاله:

تعددت واختلفت مظاهر الإرهاب، فمنها ما هو على الصعيد النظري أو الفكري، ويكون سابقًا على التنفيذ؛ لأن اعتداءً أو تجاوزًا منافيًا للطبيعة البشرية والفطرة السليمة والشريعة الإسلامية، لا بد أن يكون مسبوقًا بتمهيد وخطة نظرية مدروسة تفضي إلى ذلك الانحراف في السلوك.

فمن أخطر مظاهر الإرهاب فكريًّا الإيمان بفكرة التكفير[٢٢]، التي لا يظهر أثرها وضررها على الأفراد فحسب، بل يتجاوزهم ليشمل الشعوب والحكومات، فكل من لا يعتنق أفكارهم ولا يسايرهم في معتقداتهم كافرٌ ومهدد بالقتل

والإبادة؛ لأنهم يرفضون تقبل الآخر، ولا يؤمنون بالتعددية والحرية في اختيار المعتقد، يكشف الراوي عن هذا الجانب في قوله:

"أما الأفكار التي تحملها وتتزعم العمل لها والدعوة إليها فهي تكفير جميع الدول الإسلامية وخاصة السعودية، وتربية الشباب وتكتيلهم إعدادًا للخروج على الحكام، وكذلك دراستهم لحركات خرجت على حكامها، ومن أفكارهم الاستدلال على تصرفاتهم بفعل أسلافهم الخوارج، ولا يتورعون أبدًا عن التكفير"٢٣

فمثل هذه الأفكار لا نشعر بخطورتها، ولا تطفو آثارها الضارة على السطح، إلا عندما تُترجم سلوكًا عمليًّا في تصرفاتهم؛ أي عندما تدخل حيز التنفيذ والفعل، فتفاجئنا الأنباء عن اعتداءات وضحايا سقطوا نتيجة هجوم أو تفجير إرهابي استهدف أناسًا أبرياء لمجرد أنهم لم يشاركوهم في النظر إلى الحياة والدين من ذات الزاوية.

لكن نهج التكفير لم يكن أحد أبرز أشكال الإرهاب فحسب، بل كان كذلك وسيلة أساسية يلصقونها بكل من هو مختلف عنهم في العقيدة والتفكير، كما يَصِمُون بها الحكومة ومن يمثلها من علماء الدين، ويتخذونها ذريعة لهم يتبعونها لتقويض أركان الدولة بعد أن يسمموا بها عقول عامة الشباب، مستغلين كل مناسبة أو حادثة ليدللوا على اتهاماتهم، فمن ذلك أن استنكروا استعانة الحكومة بقوات أجنبية لردع الهجوم العراقي وحماية أراضيها، فكانت هذه الحادثة فرصتهم؛ لينفثوا سمومهم في عقول الشباب المضلَّلين، من ذلك ما قاله (زاهي الجبالي) أحد الشباب الذين استفاقوا من خدر ذلك الاتباع الأعمى:

"كان لعنُ علماء الدولة الدينيين، وتكفيرهم وشتمهم، أولئك الذين أفتوا بجواز الاستعانة بقوات التحالف،

وأيدوا الحكومة السعودية على قرارهـــا، أقـــل مـــا يمكـــن توجيهنا إليه"٢٤

بمثل هذا يعملون على تهيئة العقـــول غـــير الناضـــجة بعـــد، ويمتطـــون الـــدين ليحققوا غاياتهم السياسية رغبة في المزيد من النفـــوذ والســـلطة، يلعبـــون علـــى وتـــر التعصب والاختلاف الديني، ليشحنوا نفوس أولئك الصـــبية بمشـــاعر العـــداء والكـــره تجاه كل من هو غير مسلم، وتجاه كـــل مـــن هـــو مســـلم أيضًـــا ولا يســـايرهم في أفكارهم ونهجهم المتطرف.

وتتجلى مظاهر الإرهـــاب في مختلـــف التجـــاوزات العدوانيـــة الـــتي ترتكبهـــا الجماعات المتشددة تجاه الآخر المختلف عنهـــا في المعتقـــد، وهكـــذا كـــان فعلهـــا في التخطيط لضرب الولايات المتحدة الأمريكية في الحـــادي عشـــر مـــن ســـبتمبر عـــام ٢٠٠١م، فنهجها يقوم على سفك الدماء والتدمير وترويع الآمنين!

يصف (زاهي الجبالي) هذا الحدث بالقول:

"إذن فالتسعة عشر، الذين فجعوا العالم في هذا اليـــوم مـــن سبتمبر، كان من المفترض أن لكـ ون عشـــرينهم، لـــو أني بقيت معهم، واستجبت لأولئك الذين كـــانوا يريـــدون أن يقنعوني بالرحيل إلى أفغانستان! ولكنت واحدًا مـــن الـــذين هدموا كل هـــذه الطوابـــق علـــى رؤوس مـــن داخلهـــا! ولكنت واحدًا من الذين مزقوا المسافرين داخـــل الطـــائرات التي اصطدمت بالبنايات الثلاث! ولكنت طرفًلـ ن جريمـــة من أكبر جرائم التـــاريخ بحـــق الإنســـانية مهمـــا كانـــت المسوغات السياسية أو الدينية أو غيرها"٢٥

فقد كان (زاهي) مجندًا لصالح هذه الجماعات، ثم نجـــا بنفســـه عنـــدما ضـــاق بغلوهم ونهجهم المتشدد، فغادرهم بعد أن تأكد له أن ما يفعلونـــه ومـــا يـــدعون إليـــه من قتل وتدمير وترهيب لا يمت إلى الإسلام بصلة؛ لذلك نجـــده يزهـــو بنفســـه؛ لأنـــه

خرج عن القطيع، وتمرد عليهم مبكرًا، فالأخطار الناجمة عن مثل هذه التنظيمات المتطرفة أكبر من أن تُحصر في التسعةَ عشرَ شابًّا الذين غُرر بهم، ففجروا أنفسهم، وأكبر من الناس الأبرياء الذين ماتوا في البرجين والطائرات الثلاثة، وأكبر من الأضرار الاقتصادية التي تبعت ذلك، إنها شرارة قدحت نار عداء دولي سيمضي على اندلاعها سِنُونَ طويلة، أزهقت وستُزهق أرواحًا كثيرة قبل أن تخمد.

إن الادعاءات التي ينادي المتطرفون بها ويسعون إلى تحقيقها، تبدو في ظاهرها شعاراتٍ برَّاقةً، من مثل القضاء على الفساد في الأرض وإحقاق الحق، ولكن هذه الغاية لا تبررها الوسائل الوحشية التي يتبعونها، فالقتل وسفك دماء الأبرياء يعد المظهر الأبرز والأخطر للإرهاب، يزهقون أرواح من يظنونهم سببًا للفساد في الأرض، والمشكلة أن نقطة الاختلاف معهم تنشأ من أن ما يعده عامة الناس تسامحًا في الدين واعتدالًا، يراه المتشددون تساهلًا وتهاونًا يوجب أشد العقوبات، ولا سيما إذا كان هذا صادرًا عن رموز كبيرة في المجتمعات من مثل المفكرين؛ لذا فإن الشخصيات المثقفة المتحررة التي تدعو إلى الديمقراطية والتسامح الديني والتعايش السلمي تشكل خطرًا عليهم بما تنشره من الوعي بالوسطية والحرية الفكرية، ونبذ الغلو والتطرف، فتجدهم يستهدفون مثل هذه الشخصيات بالاغتيال، كما جرى مع المفكر الاشتراكي (جار الله عمر) في اليمن:

"وفي رحلتنا تلك كان من تعقيد القدر أن نتعرف إلى المفكر اليمني، جار الله عمر، والقدر يقول أن نحبه ونأنس به وأن نسهر معه، والقدر يقول إن جار الله عمر سيفجر في أذهاننا عبارة اخترقت أعماقنا جميعًا، فحين سألته: "ألا تخاف؟" .. أجابني: "هي كلمة إن تقلها تمت .. وإن لم تقلها تمت .. فقلها .. ومت"

والقدر أيضًا يقول أن نعود إلى السعودية، وبعد عشرة أيام من عودتنا تنقل قناة الجزيرة المشهد الذي اغتيل فيه

جار الله عمر، أثناء كلمته في أحد المؤتمرات. قتل وهو يتحدث عن الإنسان والأرض ونزع السلاح .. لقد اغتيل على يد أحد المتطرفين المغالين، الذين عشت فكرهم وثقافتهم كل السنين الماضيات!"٢٦

فالضحية – كما عهدها الراوي – إنسانٌ مفكِّرٌ دمثُ الأخلاق، ينبذ الحرب ويدعو إلى السلم، قتله شاب تلوثت جمجمته بالأفكار المريضة التي استقاها من جامعته ذات الإدراة الدينية المتطرفة آنذاك.

لعل في هذا الأسلوب غير المباشر ما يميز الفن الروائي في التنبيه إلى خطر التشدد والغلو،ليحقق بذلك إحدى أهم وظائف الأدب في هذا المجال؛ فهو مطالب **"أن يواجه السلبيات التي تدفع بالشباب إلى الخروج عن طريق السماحة والاعتدال، وأن يزرع ثقافة التسامح، وأن يأخذ مكانه بتبني الدعوة إلى طريق الوسطية في النهج، والاعتدال في التفكير، والتوازن في السلوك"**[٢٧]، ولهذا يكون التعرض لقضية التطرف روائيًا ذا خصوصية فنية تختلف عن الأبحاث الأكاديمية التي تتناوله بطريقة مباشرة؛ لأنه إنما يقدمه بطريقة تصويرية ضمن مشاهد حقيقية تنبض بالحركة، وتكون أقدر على التأثير في المتلقي وإقناعه أكثر مما يستطيعه كتاب كامل، فهي لا تخبر القارئ أو تزوده بالمعلومات، بل تريه وتشعره بما تثيره من خياله في إدراك أبعاد الظاهرة حياتيًا لا نظريًا.

وهكذا فإن أشكال الإرهاب لم تتجلَ فقط في سياستهم التكفيرية لجميع من لا ينتمي إلى فكرهم المتطرف، و لم تقتصر على الاعتداءات الدموية التي كانوا يمارسونها ضد مدنيين عزل وعسكريين يؤدون واجبهم في حماية أوطانهم، بل شملت كذلك الفئة المثقفة الواعية والداعية إلى نبذ العنف؛ لأن وجودها يشكل خطرًا على تنفيذ مخططاتهم.

الخاتمة:

يخلص هذا البحث في ختامه إلى مجموعة من النتائج الكاشفة عن أبعاد ظاهرة الإرهاب روائيًا، يمكن إيجازها فيما يلي:

١- إن السنوات الأولى في حياة كل إنسان ذات أهمية كبيرة في توجهاته اللاحقة سويَّةً كانت أم مرضية، فالبيئة التي يبصر النور فيها، وبها ينشأ ويكبر، إما أن تجعل منه إنسانًا مرهفًا داعيًا إلى الخير والصلاح، أو متمردًا متطرفًا يسعى إلى فساد البشرية. وبناء عليه، فإن البحث بيَّن من خلال الرواية أنَّ أنموذج المدرسة التقليدية الذي يعتمد أسلوب العنف والقسوة في التربية والإرغام على الاقتناع بالأفكار والمفاهيم المتعصبة، لن ينشئ سوى جيلًا حاقدًا ناقمًا ثائرًا على المجتمع ومهيأً – لاحقًا – للانخراط في أي تنظيم حركي كردة فعل انتقامية على ذلك المجتمع الذي قسا عليه في طفولته حتى صارت القسوة طبعًا غالبًا على شخصيته وفكره وسلوكه، فلا يمكن تبرئة ساحة المجتمع الذي أسهم – بطريقة أو بأخرى – في إيجاد الأسباب النفسية لدى بعض الشباب حتى ينخرطوا في مثل هذه الجماعات المتطرفة.

٢- يوضح البحث كيف أن الجماعات المتشددة تتحرك وفق سياسة مدروسة ومنظَّمة تركز فيها على استقطاب فئة الشباب المراهقين، وتبدأ باستدراجهم ترغيبًا أو ترهيبًا، مركزين على الجانب الوجداني في إقناعهم، وذلك من خلال لقاءاتهم الفردية التي يحرصون عليها سواءً في المدارس نهاية كل أسبوع، أم في المخيمات التي يقيمونها بعيدًا عن الأعين.

٣- يرصد هذا البحث الأهداف والأسباب التي دعت إلى وجود مثل هذه الجماعات المتطرفة، فقد تنوعت ما بين دينية ناجمة عن الفهم الخاطئ لماهية الدين وسماحته، وأخرى نفسية هدفها الانتقام من

المعاملة القاسية التي لقيها الفرد في مجتمعه، وثالثة سياسية، إذ يسعى قادة هذه الجماعات إلى إقامة دولة يحكمونها على طريقتهم المتشددة، ورابعة شخصية ذاتية يسعون من خلالها إلى الحصول على النفوذ والسلطة والمال والشهرة.

٤- إن أبرز ما يكشفه البحث من مظاهر الإرهاب والفكر المتطرف أمران، يفضي أحدهما إلى الآخر؛ الأول: التكفير؛ بمعنى أن هذا الفكر المتشدد يعادي كل من لا يتبع معتقداته، ويعده سببًا للفساد في الأرض، وهذا تحديدًا ما يفضي إلى المظهر الآخر للإرهاب، ألا وهو: قتل الأبرياء واستباحة دماء كل من لا ينتمي إلى أفكارهم سواء من المسلمين أم غيرهم.

٥-

المصادر والمراجع:

١- آل جهجاه، الجوهرة بنت بخيت (٢٠٠٨): "أثر النظرية النقدية الأدبية في تنشئة العنف والإرهاب الفكري". جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط١.

٢- الباشا، عبد الرحمن رأفت (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م): "نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد". قدم له: أبو الحسن الندوي، دار الأدب الإسلامي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٤.

٣- بلعابد، عبد الحق عمور: "خطاب الرواية ضد خطب الإرهاب: بحثًا عن حركية العنف والإرهاب في رواية المحنة الجزائرية". ورقة مقدمة في مؤتمر الأدب في مواجهة الإرهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ج٣، ص١٢٢٩، ١٥\١٦\١٤٣٣هـ - ٠٧\٠٨\٢٠١٢م.

٤- بوادي، حسنين محمدي: "الإرهاب الفكري: أسبابه...مواجهته". دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، د.ط، ٢٠٠٦م.

٥- ثابت، عبد الله (٢٠١١) "الإرهابي ٢٠". دار الساقي، بيروت-لندن، ط٤.

٦- الحمود، إبراهيم بن ناصر بن محمد (١٤٢٩هـ -، ٢٠٠٨م) "الانحراف الفكري وعلاقته بالإرهاب". جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط١.

٧- الغانم، عبد الله بن فهد (١٤٣٢-١٤٣٣): "الإرهاب في الرواية السعودية: الرؤية والأداة". (رسالة ماجستير غير منشورة)، قسم الأدب، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

٨- المنشاوي، الوليد عبد الرؤوف (٤٣٣ هـ -٢٠١٢م): "أثر الأدب في إرساء دعائم الأمن في المجتمع". ورقة مقدمة في مؤتمر (الأدب في مواجهة الإرهاب)، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ج١، ١٥\١٦\١٤٣٣هـ - ٠٧\٠٨\٢٠١٢م.

الهوامش

* تتبنى الرواية الكشف عن قضية حساسة ألا وهي "الإرهاب والفكر المتطرف" من خلال شخصية افتراضية تدعى (زاهي الجبالي) الذي نشأ في بيئة بسيطة، وعانى في طفولته من أساليب تربوية قاسية في مدرسته القرآنية، مما جعله ينفر بدايةً من الدين، لكنه عاد لينتمي إلى جماعات متشددة دينيًا في مرحلة الثانوية، وبعدما أدرك غلوهم تركهم؛ لأنه استشعر أن استمراره معهم سينحدر به إلى مستنقع الإرهاب.

- ثابت، عبد الله (٢٠١١) **"الإرهابي ٢٠"**. دار الساقي، بيروت - لندن، ط٤.

[١] الباشا، عبد الرحمن رأفت **(١٤١٨هـ - ١٩٩٨م): "نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد"**. قدم له: أبي الحسن الندوي، دار الأدب الإسلامي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٤، ص١٩٣.

[٢] آل جهجاه، الجوهرة بنت بخيت: **"أثر النظرية النقدية الأدبية في تنشئة العنف والإرهاب الفكري"**. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط١، ٢٠٠٨، ص١٠٤-١٠٥.

[٣] ثابت، عبد الله: مصدر سابق، صفحة الغلاف الخلفي.

[٤] ثابت، عبد الله: مصدر سابق، ص٣٠.

[٥٥] ثابت، عبد الله: مصدر سابق، ص٥٦.

[٦] ثابت، عبد الله: مصدر سابق، ص ٥٨-٥٩.

[٧] ثابت، عبد الله: مصدر سابق، ص٧٠.

[٨] ثابت، عبد الله: مصدر سابق، ص ٧٧-٧٨.

[٩] الغانم، عبد الله بن فهد (١٤٣٢-١٤٣٣)**: "الإرهاب في الرواية السعودية: الرؤية والأداة"**. (رسالة ماجستير غير منشورة)، قسم الأدب، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ص١٢٠.

يُنظر أيضًا الحمود، إبراهيم بن ناصر: **"الانحراف الفكري وعلاقته بالإرهاب"**. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط١، ٢٠٠٨م، ص٦٩.

[١٠] ثابت، عبد الله: مصدر سابق، ص ٧١-٧٢.

[١١] ثابت، عبد الله: مصدر سابق، ص ٧٠-٧١.

[١٢] ثابت، عبد الله: مصدر سابق، ص٨١.

[١٣] ثابت، عبد الله: مصدر سابق، ص٩٣.

[١٤] ثابت، عبد الله: مصدر سابق، ص١٢٧.

[١٥] ثابت، عبد الله: مصدر سابق، ص ١٢٨.

[١٦] ثابت، عبد الله: مصدر سابق، ص ١٤٠-١٤١.

[١٧] ثابت، عبد الله: مصدر سابق، ص ١٤٢.

[١٨] ثابت، عبد الله: مصدر سابق، ص٢١٦.

[١٩] ثابت، عبد الله: مصدر سابق، ص٩٠-٩١.

[٢٠] الحمود، إبراهيم بن ناصر بن محمد: مرجع سابق، ص٨٠.
يُنظر أيضًا بلعابد، عبد الحق عمور: **"خطاب الرواية ضد خطب الإرهاب: بحثًا عن حركية العنف والإرهاب في رواية المحنة الجزائرية"**. ورقة مقدمة في مؤتمر الأدب في مواجهة الإرهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ج٣، ص١٢٢٩، ١٤٣٣\١٦\١٥هـ - ٢٠١٢\٠٨\٠٧م.

[٢١] ثابت، عبد الله: مصدر سابق، ص٢٠٣.

[٢٢] يُنظر بوادي، حسنين محمدي: **"الإرهاب الفكري: أسبابه...مواجهته"**. دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، د.ط، ٢٠٠٦م، ص٢٧.

[٢٣] ثابت، عبد الله: مصدر سابق، ص٢٠٧.

[٢٤] ثابت، عبد الله: مصدر سابق، ص٩٦.

[٢٥] ثابت، عبد الله: مصدر سابق، ص١٧٥.

[٢٦] ثابت، عبد الله: مصدر سابق، ص٢٠٠-٢٠١.

[٢٧] المنشاوي، الوليد عبد الرؤوف (١٤٣٣هـ-٢٠١٢م): **"أثر الأدب في إرساء دعائم الأمن في المجتمع"**. ورقة مقدمة في مؤتمر الأدب في مواجهة الإرهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ج١، ص٣٨٥، ١٤٣٣\١٦\١٥هـ - ٢٠١٢\٠٨\٠٧م.